الباب الثانى

كتاب الفصل لابن حزم

الفصل الأول: الكتاب وظروف تأليفه.
الفصل الثانى: مصادر ابن حزم فى كتاب الفصل.
الفصل الثالث: أسلوب ابن حزم.
الفصل الرابع: كتاب الفصل بين كتب تاريخ الأديان.
الفصل الخامس: منهج ابن حزم فى الفصل.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
كتاب الفصل وظروف تأليفه

تحقيق عنوان الكتاب

تختلف آراء الباحثين[1] حول عنوان هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن وحقيقة ضبطه.. هل هو الفصل (بفتح الفاء وسكون الصاد) أم الفصل (بكسر الفاء وفتح الصاد) وما المعنى المراد مع كل؟؟ لقد كنت إبان الدراسة أسمع أساتذتنا ينطقونها الفصل – بكسر الفاء – ولا شك أن السجع وما يكسبه للعبارة من رقة وطلاوة ساعد على ذيوع هذا الاصطلاح مع ما يحيط به من مآخذ واعتراضات سأبينها بعد قليل..

وقد كنت أتمنى – وما كل ما يتمنى المرء يدركه – أن تكون بين أيدينا نسخة بخط المؤلف يضبط فيها عنوان الكتاب الذى ارتضاه، ويحسم هذا الموضوع، إذ إن إحالات المؤلف عليه فى كتبه الأخرى وفى نفس الكتاب ليس فيها ما يحل القضية، لأنه تارة يسميه «بالديوان» وتارة يكتفى بقوله «فى كتابنا الفصل» فبقى الأمر فى حاجة إلى تحقيق علمى لمعرفة الضبط الصحيح لعنوان الكتاب.. ومما زاد من صعوبة المسألة أن الخلاف يتعلق بالشكل، وهو من الأمور التى خلا منها تراثنا الإسلامى حينا من الدهر.. ومما تجدر الإشارة إليه أن ذيوع الشىء وانتشاره ليس دليلا على صحته لقد كنت أسمع دفاعا عن كلمة «الفصل» من علماء أجلاء فأسارع إليهم، وبعد عرض المسألة لا أجد عندهم شيئا ذا بال يحسم الخلاف حول هذا الموضوع.. اللهم إلا الرغبة فى عدم مخالفة الآخرين والاقتداء بمن سلف..

ومن ثم سأحاول أن أجعل وجهتى للعلم وحده، بعيدا عن العواطف والموروثات، والسؤال الآن: هل يمكن أن يكون عنوان الكتاب:

(١) راجع – مثلا – عبد العزيز عبد الحق: مقدمة الرد الجميل ٧٩.

«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»؟

هذا ما طالعتنا به الطبعة الأولى للكتاب (ط مصر ١٩١٧م) وقد كتب تحت العنوان ما يلى: (الفصل بكسر ففتح جمع فصله بفتح فسكون كقصعة وقصع النخلة المنقولة من محلها إلى محل آخر لتثمر).

وقد سار فى هذا الطريق كثير من الباحثين، منهم: الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة إذ يقول عن كتاب الفصل: (هو عدة رسائل قد كتبها، وكل رسالة فى جملتها قائم بذاته، وقد بدا له أن يجمع هذه الرسائل فى كتاب فجمعها وأعطاها ذلك الاسم الذى يدل على أصله، وهو الفصل، فإنه جمع لفصله، وهى فى معناها قطعة منقولة إلى موضع غير الموضع الذى كانت فيه، كالنخلة المنقولة من مكان إلى مكان فهى رسائل مفردة نقلت إلى ذلك المجموع، فكان منها ذلك الكتاب الذى يسمى بذلك مشيرا الاسم إلى أصله..»[1].

هذه هى وجهة نظر القائلين بهذا الرأى، بيد أن الذى أراه أن عنوان الكتاب هو (الفَصْل) وليس (الفِصَل) – كما يرى البعض – وأدلتنا على ذلك ما يلى:

أولا: القول بأن (الفِصَل) – بكسر الفاء – جمع (لفَصْلة) – بفتح الفاء – وهى النخلة المنقولة «المحولة» قول ترده اللغة، لأن «فَصْله» لا تجمع على «فِصَل» وإنما تجمع على «فِصَال» و «فَصَلات» كما تذكر كتب اللغة والمعاجم – قال ابن مالك:

فَعْلٌ وفَعْلة فِعَالٌ لهما.

ويشرح ابن عقيل هذا البيت فيقول: «من أمثلة جمع الكثرة فِعَال، وهو مطّرد فى فَعْل وفَعْلة، اسمين، نحو: كعب وكعاب، وثوب وثياب، وقصعة وقصاع، أو وصفين، نحو صَعْب وصعاب، وصعبة وصعاب»[2].

وواضح من كلام ابن عقيل – إذن – أن قَصْعَة وَفَصْلة لا تجمع – قياسا – على قِصَع وفِصَل – كما طالعتنا بذلك الطبعة الأولى وسار على هديها أناس كثيرون – وقد قال

(١) محمد أبو زهرة: ابن حزم ٢٥٣ «هامش».

(٢) شرح ابن عقيل ٢ / ٢٣٢ – ٢٣٣ تحقيق د. طه محمد الزينى ط سنة ١٣٩٠هـ (مكتبة الكليات الأزهرية).

اللغويون فى قِصَع ونظائره أنه مخفف عن قصاع، فضلا عن كونه سماعيا لا يقاس عليه – ولم يرد سماعا – فى كتب اللغة بين أيدينا وفى غيرها – أن فِصَل جمع لفَصْله..

وقد جاء فى حاشية الصَّبَّان على شرح الأشمونى[1]: (فَعْلٌ وفَعْلةٌ فِعَالٌ لهما، بالطراد اسمين كانا أو وصفين نحو وكعاب وصعب وصعاب، وقصعة وقصاع).

وقد يقول قائل: ألا يجوز أن تكون كلمة (فِصَل) جمعا لـ (فِصْله) – بكسر الفاء – ويكون الجمع قياسيا لا غبار عليه، كما يقول صاحب الألفية: (ولفعلةٍ فِعَل) مثل كِسْرة وكِسَر، وحِجَّة وحِجَج، وهكذا نقول فى فِصْله – بكسر الفاء – «فِصَل»؟ ونقول نعم بشرط أن تكون كلمة الفِصَل جمعا لِفصْله اسم للهيئة، لأنه يأتى من الفعل الثلاثى على وزن (فِعْله) فنقول جلس جِلْسة، ومشى مِشيَة وغير ذلك.. أما إذا أريد بكتاب الفِصَل أنه جمع لفِصْله وهى النخلة المنقولة المحولة كما يرى الشيخ أبو زهرة فهذا لا يجوز، لأنه غاب عنه أن النخلة المحولة من مكان إلى مكان آخر إنما هى بفتح الفاء لا بكسرها أى فَصْلة لا فِصْلة، وقد جاء فى لسان العرب: والفَصْلة: النخلة المنقولة المحولة، وقد افتصلها عن موضعها... وقال هجرى: خير النخل ما حول فسيلة عن منبته، والفسيلة المحولة تسمى الفَصْلة، وهى الفَصَلات، وقد افتصلنا فَصْلات كثيرة فى هذه السنة أى حولناها).

وفى تاج العروس[2] كلام لا يختلف فى معناه عما ذكره العلامة ابن منظور وقد سبق أن ذكرنا أن فصلة إذا كانت بالفتح لا تجمع على فِصَل..

ثانيا: جاء فى معاجم[3] اللغة: أن «الفَصْل» وهو الحق من القول، وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ (سورة: الطارق) أى حق، وقيل فاصل قاطع.

ويأتى «الفَصْل» – أيضا – بمعنى القضاء بين الحق والباطل، كالفَيْصل ونحن نقول: إن المعنيين يتفقان مع موضوعات الكتاب ومنهج صاحبه، إذ إن كتاب «الفَصْل» لا يكتفى

(١) ٤ / ١٣٤ (طعيسى البابى الحلبى).
(٢) راجع التاج ١١ / ٩٢٣.
(٣) راجع كلمة الفصل فى معاجم اللغة.

مؤلفه بالعرض والتقرير كما يفعل الشهرستانى[1] وغيره من مؤرخى الأديان وإنما يحاول تفنيد العقائد التى يرى تهافتها ويدحض ما فيها من كذب وبهتان مبينا الحق من الباطل، والخطأ من الصواب قاصدا بذلك كشف القناع عن الدين الحق والملة الصادقة حتى يهتدى إليها البشر ويلتزمون بها تاركين عقائد الشرك والضلال..

إذن كان الغرض من تأليف هذا المصنف هو الفَصْل بين أهل الملل والأهواء والنحل كما هو واضح من سياق الكتب، وكما هو ظاهر من عنوانه الذى أورده ياقوت فى معجم الأدباء[2] إذ يقول: «ولأبى محمد مع يهود – لعنهم الله – ومع غيرهم من أولى المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة، وأخبار مكتوبة، وله مصنفات فى ذلك معروفة، من أشهرها فى الجدل كتابه المسمى الفَصْل بين أهل الآراء والنِّحل».

كما ذكر المقرى فى «نفح الطيب»[3] أن لابن حزم كتابا يسمى: «الفصل بين أهل الأهواء والنحل»..

ومن هذين النصين نكاد نقطع بأن عنوان الكتاب هو «الفَصْل». لأن كلمة «بين» فى النصين قاطعة الدلالة فى هذا الموضوع، فلو كان من الممكن أن تكون «الفِصَل» لما أصبح للفظ «بين» معنى على الإطلاق. وإذن فكلمة «فَصْل» هى الأرجح على ما أرى؛ خصوصا وأن صاحب نفح الطيب رجل أندلسى عاش فى البيئة التى عاش فيها ابن حزم، أعنى البيئة التى انتشر فيها الكتاب وتردد «عنوانه» على ألسنة العلماء فى ذلك الوقت.

ثالثا: نحن لا نستبعد ما ذهب إليه أحد الباحثين ومن أن الإمام الغزالى قد استفاد من هذه التسمية وسار عليها فى كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وخاصة أن تراث ابن حزم انتقل إلى المشرق عن طريق الحميدى وغيره من تلاميذه، وقد عقد المستشرق الأسبانى «آسين بلاثيوس» مقارنة بين ابن حزم والغزالى وأثبت اتفاقهما فى أكثر من عشرين أوردها فى بحثه عنهما[4].

(١) لقد نص الشهرستانى على ذلك فى مقدمة كتابه عندما قال عن منهجه فى الكتاب: «وشرطى على نفس أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم.. دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعين حقه من باطله». (الملل والنحل ١ / ٢٣).

(٢) ١٢ / ٢٥١.

(٣) ٢ / ٧٩ (بتحقيق إحسان عباس).

(٤) سهير أبو وافية: ابن حزم ٦٦.

وقد تأكد هذا المعنى للفيصل فى مختار الصحاح حيث أبان عن الفصل بمعنى التفرقة إذ جاء الحديث الشريف: «من أنفق نفقة فاصلة من الأجر كذا» وتفسيره أنها التى فصلت بين إيمانه وكفره، والفيصل: الحاكم وفصل القضاء بين الحق والباطل[1].

رابعا: نعتقد أن «الفَصْل» بمعنى الحق من القول أو بمعنى القضاء بين الحق والباطل كالفيصل أقوى من حيث المعنى، وأكثر دلالة على مضمون الكتاب وجوهره، بخلاف تسميته «بالفِصَل» – فإنها لو صحت لغويا – لا تفيد أكثر من أن الكتاب كان كتبا متفرقة جمع المؤلف بينها، وهذا معنى هزيل لا يكشف للقارئ عن موضوع الكتاب وغرض مؤلفه، ونحن نربأ بابن حزم وعقله الكبير أن يقصد إلى هذا المعنى، وهو صاحب العناوين الرائقة التى كانت تغرى اللاحقين من العلماء باقتفاء أثرها، والسير على منوالها، وهذا هو كتاب «الأمدى» فى أصول الفقه بين أيدينا.. أليس فى عنوانه صورة مطابقة لكتاب ابن حزم «الإحكام فى أصول الأحكام»..؟

وإذا قال قائل: لماذا لا يكون ابن حزم قصد السجع فى تسمية كتابه، وهذا لا يأتى إلا بكسر الفاء حتى تتفق مع الكلمة الأخيرة من عنوان الكتاب؟ خصوصا وأن القدامى كانوا يحرصون على السجع ويزينون به عباراتهم وأساليبهم بعامة، وعناوين كتبهم بخاصة، ونحن نقول: إن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه، لأن ابن حزم إذا كان قد حرص على السجع فى بعض كتبه الأدبية مثل «طوق الحمامة» فإن أكثرها خلو من ذلك لا أثر فيه للسجع ولا للتكلف وخاصة كتب الخلاف والعقائد التى كان يشغله فيها توضيح فكرته عن سجع عبارته.

أما بالنسبة لأسماء كتبه فكانت تارة مسجوعة، وتارة أخرى مهملة هكذا بدون سجع، والذى يطالع مؤلفات ابن حزم يظهر له صدق ما نذهب إليه[2].

خامسا: مقدمة الكتاب ترشح أن يكون اسم الكتاب الفَصْل، وليس الفِصَل لأن ابن حزم لما اجتمعت لديه العوامل التى أدت لكتابته استخار الله – سبحانه – فى

(١) مختار الصحاح مادة «فصل».

(٢) راجع: مبحث مؤلفات ابن حزم.

تأليفه، ولم يذكر المؤلف فى الكتاب ولا فى غيره أن الكتاب كان متفرقا فضم بعضه إلى بعض وجعل منها كتابا كما يرى بعض الباحثين[1].

سادسا: معرفة ابن حزم بلغة العرب وتمكنه منها تجعلنا نستبعد أن يختار عنوانا لا يتفق مع اللغة، ولا يستقيم مع أساليبها، خصوصا وأن ابن حزم كانت له نظرات فى اللغة وخبرة بها كانت موضع دراسة وإعجاب من بعض الباحثين[2].. ورحم الله والده (أبا عمر) عندما قال: (إنى لأعجب ممن يلحن فى مخاطبته، أو يجىء بلفظة قلقة فى مكاتبة لأنه ينبغى له إذا شك فى شىء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا[3]).

معنى الملل والأهواء والنحل:

ينقسم الناس عادة حسب معتقداتهم وما يدينون به إلى قسمين:

١ – أرباب الأديان والملل.

٢ – وأهل الأهواء والنحل.

والملل: جمع ملّة: ويراد بها – كما جاء فى معاجم اللغة[4] – الشريعة أو الدين، كلمة الإسلام، والنصرانية، واليهودية، بمعنى أن «المِلَل» تنطبق على الأديان المنزلة.. يقول الراغب الأصفهانى: «الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله – تعالى – لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينهما وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا للنبى – ﷺ – الذى تستند إليه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (سورة النحل: ١٢٣) وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ (سورة يوسف: ٣٨).

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمة النبى ﷺ ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها، لا يقال ملة الله، ولا يقال ملتى وملة زيد، كما يقال دين الله ودين زيد. ولا يقال الصلاة ملة الله[5].

---

(١) راجع: مقدمة الفصل.

(٢) راجع – مثلا – كتاب «نظرات فى اللغة لابن حزم» للأستاذ سعيد الأفغانى.

(٣) الحميدى: جذور المقتبس ١٢٦.

(٤) راجع لسان العرب ١١ / ٦٣١ (دار صادر) وتاج العروس ٨ / ١١٩.

(٥) المفردات فى غريب القرآن ٧١٦ – ٧١٧.

أما الأهواء والنحل: فيراد بهم الذين ليس لهم دين منزل وشريعة سماوية كالفلاسفة والدهرية، وعبدة الكواكب والأوثان.. وأمثال هؤلاء ممن رفضوا وحى الله واتبعوا أهواءهم، إذ إن الأهواء جمع لهوى، وسمى بذلك لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية[1]. ومن ثم يقول الإمام القرطبى: لا يستعمل الهوى – فى الغالب – إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه[2]».

والنحل: جمع نحلة، وهى الدعوى، وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعى أنه قائله، وتنحله: ادعاه وهو لغيره[3]، وواضح أن مدلول الكلمة يعتمد على الكذب والادعاء والانتحال الذى ليس له أساس صحيح، وتلك طبيعة النحل والعقائد التى تتنكر لهدايات الله وتكفر برسله..

هذا هو مدلول «الملل والأهواء والنحل» كما تنبئنا به كتب اللغة وهذا ما التزمه الإمام الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل»[4] ولكن يبدو أن الإمام ابن حزم كان له فهم آخر لمعنى الملل والنحل غير ما نعهد فهو يحدثنا فى كتابه «الفصل» عن ملة الحق ونحلة الحق وكأن النحل عند ابن حزم فيها حق وباطل.. فهو يقول: «قد أكملنا والحمد لله كثيرا الكلام على الملل المخالفة لدين الإسلام الذى هو دين الله تعالى على عباده الذى لا دين له فى الأرض غيره إلى يوم القيامة.. ثم على صحة النبوات، ثم على صحة نبوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ وأن ملته هى الحق وكل ملة سواها باطل، وأنه آخر الأنبياء، وملته آخر الملل، فلنبدأ – الآن – بعون الله – تعالى – وتأييده فى ذكر نحل المسلمين وافتراقهم فيها وبيان الحق فى كل، وبالله نستعين..[5] ثم يقول فى موضع آخر مؤكدا على هذا المعنى: «قال الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم رحمه الله: إذ قد أكملنا بعون الله الكلام فى الملل فلنبدأ بحول

(١) راجع المرجع السابق: ٧٩٧.
(٢) تفسير القرطبى ٢ / ٢٤.
(٣) راجع لسان العرب.
(٤) راجع الكتاب المذكور ١ / ٤٢ تخريج الدكتور بدران (ط الثانية) وراجع أيضا: الدكتور أحمد الأهوانى: الملل والنحل للشهرستانى (تراث الإنسانية م ٤ ص ١٥٢).
(٥) الفصل ٢ / ١١٠.

الله ﷻ فى ذكر نحل أهل الإسلام وافتراقهم فيها وإيراد ما شغب به من شغب منهم فيما غلط فيه من نحلته وإيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل، كما فعلنا فى الملل، والحمد لله رب العالمين كثيرا»[1].

والذى يبدو لنا من خلال هذين النصين أن الملل والأديان كلها باطلة إلا ملة الإسلام الذى لا دين فى الأرض غيره إلى يوم القيامة كما يقول.. كما أن النحل – ويقصد بها ابن حزم الفرق – منها حق ومنها ما هو باطل ويرى صاحبنا أن الحق فيها إنما هو ما ذهب إليه أهل السنة، الذين يسميهم بأهل الحق، وما عداهم فهو صاحب بدعة وضلالة، ويحدد لنا أبو محمد أهل السنة بقوله: «إنهم الصحابة رضي الله عنهم وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام فى شرق الأرض وغربها – رحمة الله عليهم».

(١) الفصل ٢ / ١١١.

تاريخ تأليف الفصل

وردت فى كتاب «الفصل» بعض الإشارات التى يمكن أن تدلنا على وقت تأليفه:

(أ) من ذلك قوله فى أوائله: «زماننا هذا الذى هو وقت ولاية هشام المعتد بالله»[1].

وهذا النص يجعلنا نضع تاريخ تأليفه فيما بين عام ٤١٨، ٤٢٢هـ.

(ب) وفى مبحث آخر من الكتاب يسميه «مطلب بيان من ادعى لمدة الدنيا عددا معلوما» يقول فى سياق حديثه عن رسول الله:

«وله ﷺ مذ بعث أربعمائة عام ونيف»[2].

(جـ) وإذا كان هذا النص يداخله الإبهام من ناحية «النيف» فإن نصا آخر يوضحه يقول فيه المؤلف عند بيانه لعجز العرب عن معارضة القرآن: «إنما حملهم على ذلك العجز عما كلفهم من ذلك.. ثم عم الدنيا من البلغاء الذين يتخللون بألسنتهم تخلل الناقة، ويطيلون فى المعنى التافه، إظهارًا لاقتدارهم على الكلام، جماعات لا بصائر لهم فى دين الإسلام منذ أربعمائة عام وعشرين عاما، فما منهم أحد يتكلف معارضته إلا افتضح وسقط..»[3].

وسياق النص الذى أورده ابن حزم يشير إلى أن هذا التاريخ إنما هو منذ البعثة، غير أن الدكتور طه الحاجرى يرى أن المقصود بهذا العدد التاريخ المستعمل، أى منذ الهجرة، حتى لا يتعارض مع النص الأول بأن الكتاب وضع فى أيام المعتد بالله، وبذلك يكون تاريخ وضع كتاب الفصل هو عام ٤٢٠هـ[4].

(١) الفصل ١ / ١٦.
(٢) الفصل ٢ / ١٠٦.
(٣) الفصل ١ / ١٠٦.
(٤) راجع طه الحاجرى: ابن حزم صورة أندلسية ١٦٦ – ١٧٥.

والذى يطالع كتب ابن حزم يجد أنه يشير إلى كتاب «الفصل» فى كثير منها، مثل كتاب «الإحكام»[1] وكتاب «المحلى»[2] وكتاب «الرد على ابن النغريلة اليهودى»[3] وكتاب :التقريب لحد المنطق».

كما نجده – أيضا – فى كتاب «الفصل» يحيل إلى كتبه الأخرى[4]، مما يجعلنا نرجح أن ابن حزم كان يعمل فى أكثر من كتاب فى فترة واحدة.. وأن تأليفه لكتاب الفصل امتد فترة طويلة، وهذا ما يؤكده التاريخ الذى أورده عند حديثه عن إعجاز القرآن إذ يقول: «... وهذا هو الذى جاء به النص والذى عجز عنه أهل الأرض مذ أربعمائة عام وأربعين عاما» مما يجعلنا نضع وقت تأليف الفصل ما بين عام ٤١٨هـ إلى عام ٤٤٠هـ.

(١) راجع الإحكام ١٦، ٨٦.
(٢) راجع المحلى ١ / ١٤.
(٣) راجع الرد على ابن النغريلة اليهودى ٧٣.
(٤) انظر – مثلا – الفصل ٥ / ١٢٨.

openkandl.com

العوامل التى دفعت إلى تأليف الفصل

لابد أن هناك بعض الدوافع التى أدت إلى تأليف (كتاب الفصل) وإخراجه إلى الوجود وعادة ما يلجأ أكثر الباحثين إلى تسجيل هذه الدوافع فى مقدمة كتبهم، كما فعل صاحبنا فى مقدمة كتابه هذا، بيد أن ما يذكر فى المقدمة لا يتجاوز أن يكون أن يكون العوامل المباشرة أو الظاهرة وقد تكون هناك عوامل أخرى يستنبطها الباحث من عصر المؤلف، ومن ملابسات حياته.. ولا شك أن معرفة العوامل التى أدت إلى تأليف الكتاب تلقى الضوء على بعض قضاياه، وتكشف عن قيمته ومنهجه، ولقد سجل ابن حزم هذه الدوافع عندما قال فى مقدمة كتابه: «أما بعد، فإن كثيرا من الناس كتبوا فى افتراق الناس فى دياناتهم ومقالاتهم كتبا كثيرة جدا، فبعض أطال وأسهب، وأكثر وأهْجَرَ واستعمل الأغاليظ والشغب، فكان ذلك شاغلا عن الفهم، قاطعا دون العلم، وبعض حذف وقصر، وقلل واختصر، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات، فكان فى ذلك غير منصف لنفسه فى أن يرضى لها بالغبن فى الإبَانَةِ، وظالما لخصمه فى أن لم يوفه حق اعتراضه، وباخسا حق من قرأ كتابه إذ لم يغنه به عن غيره، وكلهم - إلا تحلة القسم - عقَّد كلامه تعقيدا يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلق على المعانى من بُعْد، حتى صار يُنسى آخر كلامه أولَه، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم، فكان هذا منهم غير محمود فى عاجله وآجله[1]..».

ومن خلال هذه المقدمة التى أوردها المؤلف نستطيع أن نحدد البواعث المباشرة التى كانت وراء تأليف كتابه فى النقاط التالية:

أولا: رغبته ﷺ فى إخراج كتاب فى الملل والنحل يكون وسطا بين إسهاب المسهبين، وإيجاز الموجزين، حتى يسد به ثغرة فى كتب المقالات كان يشعر أنها موجودة فى عصره..

(١) مقدمة كتاب الفصل.

ثانيا: تيسير هذا العلم وتوضيحه لعباد الله، إذ إنه عاب على الكاتبين الذين عقدوا كلامهم تعقيدا، وحلقوا على المعانى من بُعد، حتى تعذر فهمها على كثير من أهل الفهم، ولا ريب أن الوضوح كان من أبرز سمات مؤلفات ابن حزم إذ يرى فى تيسير العلم قربى إلى الله – سبحانه – ونشرا للخير بين عباده.

ثالثا: محاولة إنصاف أصحاب المقالات وعرض آرائهم فى دقَّة وأمانة حيث أنحى باللائمة على الذين لا ينصفون خصومهم إذ لم يوفوهم حق اعتراضهم.. فعدم حيدة الباحث فى عرض آراء خصمه – فى نظر ابن حزم – فيها ظلم للغير، وعدم إنصاف للنفس..! وقد ظهر هذا المبدأ واضحا فى كتابات صاحبنا – وخاصة كتاب الفصل – حيث كان يصور آراء خصومه أكمل ما يكون التصوير وأوضحه مهما كانت مخالفة لآرائه ثم يسلط عليها معاول الهدم – وما أكثرها وأقواها عند أبى محمد – فيأتى عليها من القواعد..!!

ويمكننا من خلال دراستنا لعصره ومراحل حياته أن نضيف للعوامل السابقة ما يأتى:

رابعا: الدفاع عن الإسلام أمام هجمات اليهود وتطاولهم على عقيدته، كما فعل ابن النغريلة اليهودى عندما ألف رسالة يسخر فيها من القرآن، مما اضطر ابن حزم إلى تفنيد شبه خصومه من اليهود، وإظهار كذب ما بأيديهم من التوراة وغيرها وإثبات أنها محرفة مبدلة ليست من عند الله – سبحانه – لأن الله لا يقول إلا الحق، وحاشا لله أن يصدر عنه الكذب والاختلاف كما هو حال التوراة التى بأيدى اليهود..

خامسا: مواجهة الحملة الصليبية التى اشتدت فى عصره بسبب ضعف الحكام واستعانتهم بالنصارى فى الحروب التى نشبت بينهم طمعا فى الرياسة والسلطان، مما أدى إلى ضياع الإسلام من تلك البلاد فى نهاية المطاف..!

سادسا: التصدى لأهل الزندقة والإلحاد، وأصحاب المذاهب الهدامة الذين كانوا يبثون سمومهم بين الناس، فكان من واجب ابن حزم ﷺ أن يهدم شبههم، ويبطل

آراءهم بما أوتى من علم وبيان، وقد ذكر ابن حزم فى كتابه الفصل[1] بعض هؤلاء الملحدين وما ألزمهم به من حجة وبرهان..

سابعا: الصراع الذى كان بينه وبين معاصريه، الذين ألبوا عليه الحكام وأثاروا عليه العامة، وسلبوه صفات الخير التى وهبها الله له، واتهموه بتهم أملاها عليهم الحقد والهوى، وقد بلغت هذه الحملة ذروتها عندما أحرقت كتبه علانية بأشبيلية فكتب يقول:

إن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى ... تضمه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث ارتحلت وإن أقم ... أقام معى حتى أغيب فى قبرى
دعونى من إحراق كتب ودونكم ... حجاج فقيه كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودا للمكاتب بدأة ... لإدراك ما قد فاتكم أول الدهر
ولا تطلبوا من سائر الناس عورة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر[2]

ولقد كان الإمام رحمه الله يأسى على هذا الكنود البيِّن، والظلم الذى يجده من معاصريه، وقد أبدع ابن حزم فى تصويره وتحليله وبيان علته عندما قال: وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر «أزهد الناس فى عالم أهلهُ» وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده» وقد تيقنا ذلك بما لقى النبى ﷺ من قريش، وهم أوفر الناس أحلاما وأصحهم عقولا، وأشدهم تثبتا، مع ما خصموا به من سكناهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه، حتى خص الله الأوس والخزرج بالفضيلة التى أبانهم بها عن جميع الناس والله يؤتى فضله من يشاء، ولا سيما أندلسنا، فإنها خصت من حسد أهلها للعلم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتى به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما فى سائر البلاد. إن أجاد قالوا: سارق مغير،

(١) انظر: مثلا – الأدلة التى أوردها ابن حزم فى الرد على ثابت بن محمد الجرجانى الملحد (١ / ١٧).

(٢) معجم الأدباء ١٢ / ٢٥١.

ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفى أى زمان قرأ؟ وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفا بائنا يعليه فى نظرائه، أو سلوكا فى غير السبيل التى عهدوها، فهنالك حمى الوطيس على البائس، وصار غرضا للأقوال، وهدفا للمطالب، ونصبا للتسبب إليه، ونهبا للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نحل ما لم يقل، وطوق ما لم يتقلد، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه، وبالحرى، وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ، أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غمز ولز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسيرُ خطبه، واستشنع هيُن سقطه، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله، وهتف ونودى بما أغفل، فتنكس لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعرًا، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النصب، إلا الناهض الغائث، والمطفف المستولى على الأمد[1].

بيد أن المحنة التى عاشها الإمام ابن حزم كانت تحمل فى طياتها منحة بل منحًا وخيرا كثيرا تمثَّل فى هذه المؤلفات العظام التى أثْرت الفكر الإسلامى، وفى ذلك يقول أبو محمد (ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهى أنه قد توقد طبعى واحتدم خاطرى وحمى فكرى وتهيج نشاطى فكان ذلك سببا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكنى، واقتداحهم كَامِنِى ما انبعث لتلك التواليف[2]»

ولا شك أن كتاب الفصل – وهو كتاب جدل وحجاج – يعتبر ثمرة أو منحة لهذه المحنة التى عرضنا لها فى هذه السطور..

ثامنا: على أنه كان يبغى من وراء كتابه هذا أن يوضح الفرقة الناجية التى يحددها بـ «أهل السنة» الذين هم أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة الذين شردوا عن طريق الحق واتخذوا غير سبيل المؤمنين.. ويحدد ابن حزم أهل السنة بأنهم

(١) ابن حزم: رسالة فى فضل الأندلس ٣٥٦.

(٢) الفصل ٢ / ١٠٧.

الصحابة رضي الله عنهم وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين – رحمة الله عليهم – ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام فى شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم[1].

تاسعا: هذه هى العوامل التى يمكن أن نستنبطها من خلال دراسة كتاب الفصل فى طبعاته التى بين أيدينا الآن، ومن روح العصر الذى عاش فيه المؤلف، ولعل مما يستأنس به فى معرفة أحد هذه العوامل التى ساعدت على تأليف الكتاب تلك الزيادة التى وردت فى مخطوطة الأزهر ولم تنشر فى الطبعات السابقة للكتاب، إذ يقول المؤلف «وإن الأمير المعتضد بالله أبا عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى الماجد الشريف الحسيب أدام الله توفيقه وأعز نصره بما منحه الله من قوة الذهن ونفاذ الخاطر وحسن الإرادة والتمكن فى العلوم والإشراف على الحقائق والرغبة فى نصر الإسلام وإعلان حجته آثر أن يكون هذا الكتاب فى خزائنه العالية وبين يديه الكريمتين.. فسارعت إلى غرضه[2]..».

(١) الفصل ٢ / ١٠٧.

(٢) مقدمة مخطوطة الأزهر والمتحف البريطانى بلندن.